دور الرقابات الأربع في بناء الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين..

قال الله (تبارك وتعالى) في محكم كتابه العزيز: ((ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكـّاها وقد خاب من دسّاها)).

اهتمت أنظمة العالم الاجتماعية المختلفة ببناء شخصية الإنسان، وتميز بعضها على البعض الآخر بقدرته على بناء هذا الإنسان مرة بذات الإنسان، وأخرى باعتبار الإنسان وحدة بناء المجتمع؛ بلحاظ كونه اللبنة الأولى في الحياة الاجتماعية؛ فتسابقت هذه الأنظمة في ميدان بناء الشخصية عند الإنسان.

هناك أربع رقابات يمكن تصوّرها في هذا المجال, وهي: رقابة قانونية دستورية تحاول أن تطارد الإنسان من خارجه، وتحاول أن تضبط حركته من الخارج، وتضع مجموعة من القوانين، وأجهزة تنفيذية لرصد حركة الإنسان في مجال المخالفة على المستوى السياسي والاقتصادي، وعلى المستوى السلوكي الشخصي، وعلى كل المستويات؛ لضبط حركته في قبال ذلك يحاول الإنسان الملتزم أن يُطيع القانون، فيما المتمرد وغير الملتزم بالقانون استحدثت له الدول أجهزة متعددة، وتفننت في تقنيتها من كاميرات وأجهزة تنصت وأجهزة مخابرات وأمن لملاحقة مثل هذه الشخصيات, هذه بالنسبة لنا لا تتعارض مع مبادئنا وقيمنا؛ لأن فيها تمكيناً لأجهزة الدولة لبناء الشخصية، وتطبيق القوانين المختلفة، وفي الوقت نفسه تتمكن من ملاحقة الذين يرتكبون جرائم.

بعض الدول لا تكتفي بالرقابة القانونية وتقف عند هذا الحد بل وضعت أنظمة اجتماعية أخرى تكون أقرب إلى طبيعة الدين وتتفاعل مع الرقابة القانونية؛ فتجعل من المجتمع نفسه رقيباً على أفراده؛ كعلاقات الجوار والصداقة والقرابة وعلاقة المعلم بتلاميذه فالجار يتحدث مع جاره، والقريب يتحدث مع أقربائه، والصديق يتحدث مع أصدقائه، والمعلم في المدرسة يتحدث مع طلابه يروّج الأفكار الصحيحة، وينهاهم ويشجب التصرفات الخاطئة, هذه النوع من الرقابة لا يوجد في المجتمعات والأنظمة كلها إنما وُجد في الإسلام، وهذا القانون يسمى
بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

فهو قانون لا يخرج من السلطة على المجتمع، وإنما يُمارَس من قبل المجتمع وفي المجتمع. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء كان المعروف أخذ معنى المعروف، وهو (العـُرف) وما تعارف عليه الناس، وعرفه العقل، وأقره الشرع، والمنكر كذلك هو ما أنكره العقل، والعرف، وينكره الشرع كذلك.

ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكون بين طرفين الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر وهو طرف اجتماعي، والطرف الآخر المأمور بالمعروف والمَنهيّ عن المنكر وهو طرف اجتماعي أيضاً, هذه الرقابة تـُمارَس في الأجواء الاجتماعية العامة، والإسلام أكد عليها وهي مذكورة في العديد من آيات القرآن.

هناك رقابة ثالثة، هي: الرقابة العائلية والرقابة الأسرية, حيث يجد الأب والأم، والزوج والزوجة أنفسهم معنيين ببناء الشخصية فيقفون بسلبية إزاء أية مفارقة

سلوكية تظهر عند أحد أفراد الأسرة فيمارس الأبوان عملية النهي عن الخلل الذي يحصل في الشخصية في الوقت نفسه يُكمِلان بناء شخصية أبنائهم وبناتهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, إذن هناك رقابة ثالثة هي الرقابة العائلية، هناك رقابة رابعة تنبع من داخل الإنسان فيراقب نفسه، ويمارس عملية المحاسبة وعملية البناء لذاته عن كثب، وهذه الرقابة لها خصوصية تتفوق على الرقابة القانونية فقد تعجز عن ضبط حركة الإنسان الرقابات القانونية، والاجتماعية، والأسرية العائلية.

فهناك أحوال لا تستطيع الرقابات رصدها كما إذا دخل في غرفته فإنه لا يراه أحد ومن ثم قد يمارس المحظور! من دون أن يشعر به أحد, أما الرقابة الداخلية والذاتية فمن شأنها أن ترصد حركة الإنسان؛ لأنه يعرف ما يعوزه من نقاط إيجابية، وما فيه من نقاط سلبية:

((بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره))

من هنا يكتفي قانون المحاسبة بعملية بناء الإنسان بشكل مضطرد هذه ميزة تميزت بها الديانات السماوية؛ لأنها تنبعث من داخل الإنسان ومن قلب الإنسان، وتؤسس على أساس علاقة الإنسان بالله (تبارك تعالى) فقانون النقد الذاتي الذي وُضِع من قبل المنظّر الماركسي لم يُعطِ ثماراً إيجابية؛ لأنه يفتقر إلى حالة ربط الإنسان ابتداءً بالله.

وبما أن قانون النقد الذاتي يُمارَس من الإنسان على ذاته ما لم يكن ابتداءً قد ارتبط بقوة غيبية مع الله (تبارك وتعالى) لا يجد ما يبرّر أنه يمارس هذه الرقابة؛ لذلك افتقر إلى مرتكز روحي ومعنوي وغيبي, لم يُؤتِ الثمار المطلوبة.

هذا عند الكثير منهم ولا أقول: إن الماركسيين كلهم كانوا لا يؤمنون بالله (تبارك وتعالى) بل إن قسماً كانوا يؤمنون بالله واتخذوا الاشتراكية نظاماً لتسيير شؤون الحياة وإدارتها لكن قسماً آخر منهم كانوا ملحدين ولا يؤمنون بالله وعند عدم الإيمان بالله لا توجد قيمة لعملية الرقابة الذاتية مادام الإنسان يمارس ذلك في قلبه وهو مقطوع الصلة بأية قوة غيبية فمن الذي يضمن أنه يستطيع أو أنه سيلتزم بما تـُملي عليه سريرته في داخله.

المحاسبة في الإسلام تـُمارَس بين الإنسان وذاته في داخل شخصيته وهذه أروع أنواع المحاسبة؛ إذ إن الرقابات الأخرى **(القانونية والاجتماعية والعائلية)** قد تخطئ فيما الرقابة الذاتية والشخصية لا تخطئ؛ لأنه يدرك حقيقة فعله وسلوكه فيعيش في داخله حالة من الصراع بين شقين في شخصيته، هما العقل وما يرى والعاطفة والهوى والنفس والغريزة الجانب الحيواني وما تحاول أن تحكم الإرادة، وهذا هو البداية الأساسية والمنطلق الأساسي الذي يجعل الإنسان ينبعث في عملية المحاسبة لبناء شخصيته.

لنتساءل عن علاقة هذا بشهر رمضان وبالصوم في شهر الصوم.. الغرائز والشهوات المشروعة تتجمّد في ساعات الصوم فضلاً عن الغرائز غير المشروعة وبالتالي تأخذ الإرادة حصة كافية من الغلبة على الشهوة, والإنسان في حالة صراع

في داخله بين شهوة تحاول أن تـُبعده عن جادة الصواب وعقل يحاول أن يُرشده إلى الطريق وإرادة تحاول أن تمشي خلف الطرف المنتصر.

في شهر رمضان المبارك بناءً على الرياضة الروحية التي يمارسها الإنسان والصوم هو كفّ؛ لذلك من يكبح الغريزة ويقف أمامها يجعل العقل متفوقاً على الشهوة وبالتالي يكون في وضع أنسب من أي وضع آخر لبناء شخصيته؛ فعلى الإنسان ان يعيش شهر رمضان المبارك بما هو تقوى بالقلب كما نصت عليه الآية القرآنية الكريمة في سورة البقرة:

((لعلكم تتقون))

عندما يحصل في داخل الإنسان هذه المَلـَكة الرائعة وهي ملكة التقوى والتي من شأنها أن تموّل الإنسان بالإرادة والبصيرة للعقل فيتغلب على شهوته.

قد يكون كثير من الناس عندما يواجه رقيباً معيناً يحاول أن يحتال، ويكذب، ويبرر لكننا نجد من يملك تقوى وشجاعة كافية لا يجد نفسه أمام حالة يبرر ويكذب، وإنما يقول الحقيقة كما هي، فإذا أخطأ يتميز بمَلـَكة الصدق الرائعة التي تغطي على هذا الخطأ فيقول أخطأت؛ أو قصّر في عمل يعترف بتقصيره فالمحاسبة التي تنطلق من داخل الإنسان هي التي توفـّر هذه المَلَكة الرائعة لجعل الإنسان ينطلق من داخله فيصل إلى أحسن ما يصل إليه وهو كما تعبّر عنه الآيات القرآنية الكريمة التي قرأتها: **((ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها))**

بأن للنفس الإنسانية القابلية والقدرة على الفجور والقابلية والقدرة على التقوى؛ عندئذ تبقى المهمة على عاتق العقل في تغليب طرف على آخر:

((قد أفلح من زكـّاها))

عندما يزكي الإنسان نفسه يربيها وينميها فإذا حكـّم الإنسان عقله بطريقة صحيحة استطاع أن يزكي نفسه مثلما نصت عليه الآية القرآنية الكريمة؛ فيمارس سائر أنواع الرياضة الروحية خصوصاً في شهر رمضان المبارك حيث إنه يكون في حالة عودة إلى الذات ومراجعة لتصرفاته، فيبدأ يسأل نفسه، ويُشرّح ذاته، ويضعها أمامه، ويكون هو المحاسِبَ و هو المحاسَب, ويسأل نفسه عن كيفية التعامل مع نفسه كحقوق شخصية، وكيفية التعامل مع أسرته كحقوق أسرية، وكيفية التعامل مع الآخرين كحقوق اجتماعية، ويسأل نفسه عن سائر أنواع الحقوق الأخرى، فيجد أن هناك أخطاء كثيرة تسربت إلى شخصيته، ويبدأ بمعالجتها بشكل جِدّي، وقد يستعين بالآخرين... **إذن هناك مساران: الأول لبناء الذات وبناء الشخصية**، وهو أروع مسار لأنه يقوم به من داخله بلا ضغوط اجتماعية وبلا ردود فعل وبواقعية ويعرف نفسه حق المعرفة ومكان نقاط ضعفه.

يستطيع الإنسان أن يخدع الآخرين لكنه لا يستطيع أن يخدع نفسه لأنه يعرف نفسه جيداً من هنا تبدأ هذه العملية، والرسول (ص) عندما رجع من معركة بدر قال: (جئتم من الجهاد الأصغر وعليكم بالجهاد الأكبر؛ قالوا: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: جهاد النفس). جهاد الخارج هو أن يتوجه الإنسان بكل قواه عندما يُعذَّب، ويُضطهد وهو ردّ فعل طبيعي أن يحمل سيفاً لأنه يدافع عن نفسه, فإذا كان

إنسان يريد أن يقتلك، أو يريد أن يغتالك، أو يريد أن يشوّه سمعتك فمن الطبيعي أن تردّ عليه؛ لأن النفس الإنسانية تكره الاعتداء عليها.

لو تأمّل الإنسان ذاته سيجد قوتين تتصارعان داخل نفسه بين عناصر محبّبة له في شخصيته وبين العقل فالنفس تريد شيئاً محبّباً لها والعقل يرى خلاف ذلك؛ فيبدأ الصراع، فمثلاً: كيف يقاوم الإنسان المال الحرام، والجاه الحرام داخل نفسه... الكثير من النزوات في القضايا الدنيوية لها جانب حرمة كيف يواجهها، ويقوى عليها، ويتغلب عليها؟

فتعيش النفس عندئذ في معادلة صراع بين نزواتها وبين العقل الذي يدرك قبح تعاطي المحرمات وعندما يفوز الإنسان في هذا النوع من الصراع سيجد الانتصارات في الميادين الخارجية سهلة جداً؛ فالإنسان إذا قدر على نفسه كان على عدوه أقدر، أما الإنسان الذي لا يقدر على نفسه فإنه لا يستطيع أن يحقق انتصاراً على أعدائه.

الملفت للانتباه أن تقول الآية الكريمة:

((قد أفلح من زكـّاها))

فماذا يقصد بكلمة "أفلح" الفلاح يعني الظفر، وهو نيل المطلوب والظفر به وهو في الدنيا من السعادة, وفي الآخرة هو الانتقال إلى حياة دائمة لا انقطاع لها ونعمة لا زوال لها، وعلم لا جهل فيه، و سعادة لا شقاء فيها. وهذا هو الفلاح الذي يريده الإنسان وهو هدف سامٍ؛ فيصبح في حركة دائبة.

لو رجع الشخص إلى آيات قرآنية أخرى لرأى أن الإنسان في المسار الداخلي في حالة صراع مستمر مع نفسه لتحقيق هذه الأهداف، **وأما المسار الآخر فهو المسار الاجتماعي** الذي وضعه الإسلام حتى يتوازى مع هذا، ويسنده ويقويه, وهو قوله تعالى: **((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))**

فالإنسان عندما يتحرك في داخله من أجل تحقيق هذا الهدف "هدف الفلاح" قد يعجز عن أن يحقق كامل مطالبه وهو صادق مع نفسه فعلاً أنه يريد أن يتحرر من نقاط الضعف في شخصيته لكن قد يكون عاجزاً، من هنا وُضِع له قانون ثانٍ من الخارج هذا القانون يُكمّل القانون الأول, فحثه الإسلام على اتخاذ صديق من الخارج يقول له بكل صراحة: هذه نقاط ضعفك فهو عندما يحاسب نفسه ربما لا يملك القدرة الكافية على تشخيص نقاط الضعف لكن عندما يصادق إنساناً فعلاً يصارحه ويقول له بحقيقته فيجد نفسه أمام من يكمّل عملية الداخل لذلك المسار الاجتماعي **((وأولئك هم المفلحون))**

في تقديري أرى أن هذا هو السر في بناء الشخصية وهو نقطة الافتراق بين الأنظمة الاجتماعية ذات البُعد المعنوي والأنظمة الاجتماعية ذات البُعد المادي ولكن طبعاً الأنظمة الاجتماعية ذات البُعد المعنوي لم تغفل المادة على العكس من ذلك فقد اهتمت كثيراً بالقضايا المادية، ولكن لم تقف عندها، وإنما ركزت، وحركت الدوافع المعنوية في داخل شخصية الإنسان؛ لأنه لولاها لتحول إلى "ذئب" كما أشار "نيقولاي ميكافيلي" في كتابه (الأمير) حين كان ينصح الأمير، قائلاً: أنا أقدم لك

نصيحة بأن تكون بنصفين ثعلب على إخوانك وزملائك... أي تراوغ... وأن تكون ذئباً على أعدائك تفترسهم بأية فرصة.

هذه النصيحة دليل افتقار هذا الإنسان للجانب المعنوي، والأمير نفسه الذي كتب له رفض هذا المنطق، وقال له: كتابك هذا ليس "الأمير" و إنما " الشيطان"؛ فنفاه إلى جزيرة (كان) في (فلورنسا) ويبدو من رفضه أنه كان لديه بقية قيم فرفض هذا؛ فالإنسان عندما يتجرد عن القيم يتحول إلى شرير ويصبح أخطر من الحيوانات! لنعُد إلى ملف الحرب العالمية الثانية والتي في بدايتها استولى (هتلر) على "تشيكوسلوفاكيا"، وتداعت الأنظمة الأوروبية، واختلت التوازنات، فشعر (تشامبرلون) أنه ضعفت شعبيته والبرلمان أثار عليه ردود فعل فبدأت البوصلة الاجتماعية والشهرة تتجه نحو "أونسون تشرشل" وكان (تشامبرلون) في ذلك الوقت رئيس الوزراء؛ فذهب، وزار "هتلر"، وقال له: أنت عملت لنا مشكلة فقسم له اليمين، وقال: بعد "تشيكوسلوفاكيا" ليس لديّ شيء، لا آخذ أي شيء؛ فرجع مسروراً، وألقى خطاباً في البرلمان البريطاني بأن "هتلر" أعطاني كلاماً، ولا توجد أية مشكلة بعد... وبعد فترة أرسل "هتلر" مجموعة من الألمان، ارتدوا ملابس بولندية، وذهبوا إلى مخافر حدودية بولندية يرتدون الملابس البولندية، ثم أمر القوات الألمانية أن تقتلهم فلما قتلوهم ادّعى أن هناك قوات بولندية تجاوزت الحدود البولندية – الألمانية، واعتدت علينا، فأصبح الألمان ضحية وخدعهم وخدع بولندا بأنه تقوّل عليها، و جرّ العالم إلى حرب عالمية ثانية أودت بـ(55) مليون بريء هذه من إفرازات القرن العشرين الذي ودّعناه قبل نحو ست أو سبع سنوات.

فافتقار الناس إلى العامل الأخلاقي والعنصر الذاتي الذي ينبع من داخلهم يجرّ الإنسان إلى ويلات وبالنسبة للإنسان المؤمن الدافع الداخلي والعلاقة القلبية التي تربطه بالله (تبارك وتعالى) توفر له وللآخرين حصانة تجعلهم بمأمن من الخيانة.

العالم اليوم تفنّن بصناعة مختلف أنواع الأجهزة لضبط حركة الفرد, فالضرائب بالخارج أجهزة كاملة تعمل على ضبط حركة الفرد من الخارج لكن مع ذلك يحتال الكثير على هذا، أما الإنسان المتدين فتكفيه الرقابة الداخلية.. عندما يجلس وحده، ويحاسب نفسه على سبيل المثال عنده خُمس أو عنده من غلة الأرض ولا يريد أن يعطي زكاة، ولا يوجد أحد معه لا شرطي و لا كاميرا يفكر إلى حد الدينار الواحد بأن هذا دينار وأنا لم أعطِ خُمسَه، ويُفرز النسبة الشرعية، ويضعها جانباً.. هذا الدافع يضفي على الاقتصاد الإسلامي بُعداً معنوياً؛ والتبذير كذلك كم من الثقافات تحذر منه ومن مخاطره الاجتماعية والاقتصادية، وكذا تعمل البلد التي تعاني من شحة المياه على سبيل المثال عن طريق الإعلام والثقافة المختلفة والتثقيف لمنع التبذير بالماء وعندما لا يوجد هناك رادع داخلي تربطها بالحرام؛ فيشعر الإنسان مباشرة أن عليه أن يستخدم الماء على قدر الحاجة وما زاد على ذلك فهو تبذير والمبذرون كما يقول نص الآية الكريمة: **((إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين))**

الرقابة الاجتماعية مبنية على الرقابة الداخلية، وهناك تبادل في التأثير بين الرقابة الاجتماعية والرقابة الداخلية، أوالمقوّم الذاتي والمقوّم الاجتماعي.

الثقافات التي تسود في المجتمع الآن ترى أنه يوجد انفصام بين الخطاب وبين كثير من الممارسات فالذين يتحدثون عن الإرهاب كثر وقد يكون قسم منهم صادقاً، وقسم آخر يتحدث بنفاق.. سبب هذا النفاق هو انعدام الرقابة الذاتية فتجده حين يجلس في محفل يتحدث بما ينسجم مع المحفل، وعندما يعود إلى بيته يتحدث بلغة أخرى.. أنا أسأل أن هذا الإنسان الذي يتحدث بهذه الطريقة وأولاده يرونه في التلفزيون وكذا أصدقاؤه يرونه يتحدث برفض الطائفية، وهو يعيش الطائفية مع أصدقائه وإخوانه وفي داخل بيته!! ويتحدث ضد الإرهاب في التلفزيون، ولكنه في بيته مع زوجته ومع أطفاله يتشفى ويروِّج و يموِّل الإرهاب!! ماذا يفعل هذا!؟ إن هذا يغتال نفسه اغتيالاً معنوياً؛ لأنه لم يعد لديه قيم, ويغتال أولاده بيده، ويغتال زوجته، ويحطم البيت كله, هذا هو النفاق السياسي بأن تتحدث بما لا تعتقد، وتضمر ما تعتقد به في داخلك.. هذا دليل على انعدام الرقابة الداخلية والذاتية.

الصوم وشهر الصوم المبارك يجعل الإنسان في حالة أكثر تمكناً من أي وقت مضى وأكثر من أي شهر آخر متمكّناً من التحكم بزمام أمره في داخله وإنه فعلاً يحكّم العقل على العاطفة والإرادة على الهوى يحكّمه بشكل كافٍ بحيث يأخذ بنفسه على مدارج أيام شهر رمضان المبارك حتى يصل إلى العيد وأعتقد أنما سُمّي العيد عيداً؛ لأنه يمثل عودة الإنسان إلى فطرته؛ لذلك نلتقي مع مفهوم العيد بشهر رمضان المبارك بعد رياضة روحية تمتد قرابة 30 يوماً أو 29 يوماً، ثم نلتقي بالعيد؛ لأن الإنسان حكّم إرادته على طول الشهر، وحكّم عقله على طول الشهر، ثم يصل إلى العيد عائداً إلى فطرته، وكذلك نلتقي بمفهوم العيد في مكة المكرمة عندما نذهب للحج ففيه أيضاً إحرام ورياضة روحية يصل بها الإنسان ويعاني بين مُحرِم وطائف ومُصلٍ صلاة الطواف وساعٍ ومقصّر، ثم يذهب إلى عرفة، ثم، ...ثم ...إلى أن يُكمِل، ثم بعد ذلك يختم بالعيد؛ لأنه عاد إلى الفطرة. وهناك عيد الغدير, وأعياد أخرى كما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) **(كل يوم لم أعصِ الله فيه فهو عيد)** إذن العيد هو عودة.

فنصْرُ الإنسان في شهر رمضان ليس فقط أنه صام بالجوارح أو عن الطعام أو المفطرات الأخرى، وإنما هناك جانب أخلاقي وقِيمي وهو كيفية تحقيق تراكمات أخلاقية ينتصر فيها بحيث يحوّل شهر رمضان إلى شهر ولادة صحيح أن الولادة التكوينية واحدة، لكنّي أعتقد من حيث الفكر، ومن حيث القيم، ومن حيث التربية، والنمو أن الإنسان يستطيع أن يصنع ولادات متعددة له عندما ينتصر على تأريخه بما فيه من أخطاء، ويحقق نجاحات في المستقبل، وهكذا يستطيع أن يتخذ من شهر رمضان المبارك بما فيه من هذا الفضل وما فيه من قربى إلى الله (تبارك وتعالى) وما وعد الله به عباده من الثواب أنه يتخذ منه فصلاً روحياً وفرصة مناسبة لتحقيق هذا الانتصار لذلك حتى إذا انتهى شهر رمضان المبارك تبقى عملية المحاسبة مستمرة، وبعد ذلك سيتحوّل شهر رمضان والصوم من أداء إلى (فريضة إقامة) بمعنى أن الإنسان يُقيم حياته على أساس الصوم، كما يُقيم حياته على أساس الصلاة والحمد لله ربّ العالمين..

العيد في الأمم الحية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين وجميع عباده الصالحين.
قال الله تبارك وتعالى في محكم كتابه العزيز:
((فأقم وجهك للدين حنيفاً فِطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدِين القيّم)).
الله (تبارك وتعالى) في مُحكم كتابه العزيز يشير إلى أن الإنسان وُلِدَ بالفطرة على الدين، وإنما تعرض عليه بعض الانحرافات والخروج عن هذه الطبيعة التي أودعه إياها ما تختزن من عناصر الخير إنما تعرض عليه بعد ذلك وإلاّ فهو في الأصل من حيث الخلقة يمتلك استعدادات للخير كما توجد فيه استعدادات للشر:
((و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها))
وهذه الآية القرآنية الكريمة تفتح لنا أفقاً لفهم الذات والدين إنما هو لبقاء الإنسان على فطرته كما خلقه الله؛ لذا جاءت مفردتا الدين في أول الآية وآخرها:
((فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم))
فهذه حقيقة لا يستطيع أن يخرج عنها أحد فنحن بالتكوين متدينون والانحرافات مجرد عوارض؛ لذلك هذه دحضت النظريات التي تقول: إن الإنسان عندما يُولَد يحمل في داخله خطايا وما شاكل ذلك بالعكس الله (تبارك وتعالى) في صريح القرآن:
((والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم))
فالقرآن الكريم يفتح لنا أفق الإنسان الذي خُلِق بأحسن صورة وعلى أتمّ وجه.
الفطرة تتعرض لبعض التلوث لأسباب اجتماعية من هنا وهناك لأسباب عائلية, أو أسباب سياسية، وقد تتعرض للانحراف، وتخرج عن الجادة الصحيحة؛ فيمارس الإنسان دوراً روحياً؛ من أجل إبقائها وإرجاعها إلى ما كانت.
العيد نلتقيه بعد جهد روحي يستمر ردحاً من الزمن كما نحن الآن على أبواب عيد الفطر المبارك, شهر كامل من الرياضة الروحية وأية رياضة تقف أمام الشهوات المشروعة, الشهوة المشروعة في الأيام الاعتيادية تُجمَّد في هذا الشهر حيث العبادات, والاستغفار, وليالي القدر, وقراءة القرآن الكريم, وتكثيف الدعاء,

وصوم الجوارح: العين وما تنظر، والأذن وما تسمع، واللسان وما ينطق، و ما شاكل ذلك.

تتحشد في الإنسان مجموعة من الطاقات و العناصر من أجل إعادته مرة أخرى إلى حيث خلقه الله (تبارك وتعالى), لذلك ربما تكون كلمة (عيد) من (عَود) يعني عودة الإنسان إلى فطرته حيث خلقه الله (تبارك وتعالى)، وعندما يعود لها فهو منتصر في هذه الحالة؛ فيمارَس العيد من هذا الموقع، ونحن نلتقي مفهوم العيد في شهر رمضان المبارك، ونلتقي مفهوم العيد في الحج، ونلتقي مفهوم العيد في الغدير، ونلتقي مفهوم العيد فهماً متحركاً غير ثابت دينامياً, يعطيه الإمام علي (عليه السلام):

(كل يوم لم أعص ِالله فيه فهو عيد)؛ لأن المعصية تلوث الفطرة، والطاعة تجعل الإنسان يمشي على جادة الفطرة وبالتالي كل انتصار يحققه الإنسان على المعصية التي تحاول أن تخرجه عن جادة الطاعة فهو عيد, لماذا؟ لأنه عودة إلى الفطرة.

الله (تبارك وتعالى) خلق العقل وبالعقل يميز بين الحُسن والقـُبح، والخير والشر، والحق والباطل. وخروج العقل عن هذه القوانين التي أودعها الله تعالى فيه يعتبر غير طبيعي. أما الطبيعي فهو الذي يفكر بطريقة صحيحة؛ لذلك أعطانا الإسلام قواعد عقلية عامة، منها:

((مالكم كيف تحكمون))

كيف تحكمون على الناس, أنتم تتمنون لأنفسكم الخير، وتتمنون للآخرين الشر, هذا شيء غير معقول، ومنها:

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

وغيرهما الكثير... فالإسلام يريد الإنسان أن ينظر للآخرين بطريقة يجعل نفسه مقياساً.

فالخير الذي يريده لنفسه يريده للناس، والشر لذي يبعده عن نفسه يبعده عن الناس؛ فعودة الإنسان إلى الفطرة هي العيد الحقيقي.

ولو ألقينا نظرة على قضية العيد في حياة الأمم والشعوب لوجدنا ما من أمة إلاّ ولها عيد، بل سلسلة أعياد والأعياد مرة تـُستوحى من تحقيق إنجازات معينة، مثل: عيد الحرية في إحدى البلدان, أو عيد العمال العالمي في 1 آيار, وأعياد لثورات تقرن نفسها دائماً بالانتصار حتى تتحول إلى الوجدان الشعبي فيعبّر عنها عيد انتصار الثورة, الثورة الكذائية في مختلف مناطق العالم حتى تتحول إلى حالة مشاعرية. إذن الأعياد لها أنماط وأشكال مختلفة.. إلا أن الأعياد في الإسلام لها مضامين ثابتة وراسخة.

في الديانات عموماً لا يوجد عيد مسيـَّس إنما العيد المـُسيَّس هو أن تجد مثلاً حكومة تنتصر تجعل ذلك اليوم عيداً، ثم تأتي حكومة أخرى فتلغي ذلك العيد؛ لأنه يشير إلى الضدّ لها، وتستحدث عيداً جديداً:

((كلما دخلت أمة لعنت أختها))

فتجد بتعاقب الحكومات تتعاقب الأعياد؛ لأنها من فعل السلطان، ولم تنبع من فطرة، ولا من وحي سماوي، ولا من انتصار حقيقي لشعب أو طبقة.. فمرة نقول: (عيد المرأة, عيد الطفل, عيد العامل) يمكن أن نلتقي على هذه المفاهيم
وإن لم تكن مُشاراً إليها في الديانات لكنها تنسجم مع الفطرة, ومرة أخرى الأعياد المُسيَّسة فالحاكم يريد أن يجعل من ميلاده عيداً, أي مولده الشخصي عيداً و..و..إلخ ..

هذه الحالات الموجودة طرح الإسلام أو الديانات بديلاً عنها ونمطاً آخر من الأعياد تختلف عنها. العيد من وجهة نظر دينية عامة كما تحدثنا الآية القرآنية الكريمة:

((قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا))

ماذا يعني هذا المفهوم؟ أولاً السيد المسيح نبي، وثانياً أن تكون هذه المائدة عيداً لأولنا وآخرنا فالنظر إلى العيد يعطيك موروثاً تاريخياً متجذراً و قديماً وهو أن أمم العالم بمختلف دياناتها تتفاعل مع بعض الأعياد؛ لأنها ترمز، وتشير إلى مفاهيم و مصاديق دينية، أي إنه يوجد دين يجمعها فلاحظ العيد عندما يتجذر في حياة الناس، فمثلاً: نقول: (عيد الأضحى, وعيد الفطر, وعيد الغدير) هذه الأعياد ليست قضية طارئة بصفقة سياسية ذات تاريخ ولها جذر، ولو نظرت أفقياً لرأيت أن الناس الذين يمارسون، ويحيون هذه الشعائر في مختلف مناطق العالم لا يُختزل في قومية معينة ولا وحدة جغرافية معينة ولا بلد معين إنما يتسع والهرمية الاجتماعية كلها تتفاعل من الناس.. المسؤولين الكبار والأثرياء والطبقات الاجتماعية إلى الناس الفقراء بالمال من الكبير إلى الصغير حتى الطفل تجده فرحاً.

هذه الحالة من مفهوم التعامل مع العيد وهذه الطريقة تجعل الأمة الحية تمارس شعيرة العيد من موقع الوعي لما يعني العيد. فماذا يعني أننّا نعيّد في خاتمة شهر رمضان المبارك وأول يوم من شوال ماذا يعني ذلك؟ يعني الانتصار والعودة إلى الفطرة وهو تفاعل الجزء الفردي مع الكل الاجتماعي تفاعل بطريقة إيجابية لا يفصل سعادته عن سعادة مجتمعه، ولا يفصل معاناته عن معاناة شعبه لذلك العيد مظهر اجتماعي ليس فردياً فقط أن الإنسان يفرح في داخله وفي داخل أسرته بمعزل عن المجتمع بل طبيعة العيد مظهر اجتماعي فالكل يفرحون؛ لذلك عندما يشعر الإنسان بأن المجتمع كما نرى الآن تتصدع بعض الجوانب الاجتماعية فيه بأسباب التخريب، والفقر الموجود حالياً، وقلة الخدمات يشكل له ذلك حافزاً فيحاول أن يضيف من طاقته على طاقة المجتمع، ويختزل زمن النمو، ويسهم في بعث السرور في نفوس الآخرين؛ لأننا لا نريد أن نغيّب الابتسامة عن شفاه الأطفال عموماً لكن عندما نجد أن هذا يتيم، وهذه امرأة، وهذا شيخ مثكول يجب أن نفكر بشكل جدي بطريقة نعمّم الابتسامة له ونصبّره، ونجعله جزءاً من الحالة الاجتماعية التي تمارِس العيد من موقع الفرح.

لا يوجد في الإسلام قصور بالمفاهيم ربما تكون هناك أزمة تطبيق لكننا لا نعاني من أزمة مفاهيمية، ولا يتنافى أن الإنسان يواجه صعوبات ومشكلات في حياته ويسجل انتصاراً، ويمارس العيد وشعائر العيد ويطبّق الأعراف المتداولة في رحاب العيد كأحسن ما تكون ويظهر بمظاهر القوة ولا يحتاج إلى رصيد بالبنك وإلى ما شاكل ذلك يستطيع أن يعكس هذا الفرح و يكون جزءاً من الحالة العامة مع المجتمع...

علينا أن نفكر بشكل جدي أننا في العيد جزء من هذا المجتمع، وأن الصوم عبادة اجتماعية صحيح هو عبادة كفّ و ليس عبادة أداء؛ لأن الذي يصلي يأتي بمجموعة حركات منتصباً ثم راكعاً ثم ساجداً أما الصوم فهو عبادة كفّ لا أداء:

((إني نذرتُ للرحمنِ صوماً فلنْ أُكلّمَ اليومَ إنسياً))

لكنّ فيه مظهراً اجتماعياً نقبله أو لا نقبله.. عندما نسير في الشارع لا نرى علامات إفطار معناه أننا في مجتمع صائم، وعندما ندخل إلى العائلة نجدها صائمة, فالجو الاجتماعي العام صائم إذن عبادة الصوم هي عبادة اجتماعية، والعيد أيضاً ممارسة وطقس اجتماعي يجب أن نعطيه البُعد الاجتماعي بالشكل الإيجابي المطلوب كتفقد الفقراء والمحتاجين هذه واحدة من آثار الحكمة في تشريع الصوم، وهي أنَّ هذا الإنسان الثري يرى نفسه شهراً في السنة لا يستطيع أن يأكل؛ لأنه وجب عليه الصوم بينما يتذكر أن آلافاً بل ملايين أو توجد نسبة من الفقراء والمحتاجين في مجتمعه ومجتمعات أخرى على طول السنة قد لا يحصلون على الأكل.

في ليلة العيد توجد زكاة تسمى **(زكاة الفطرة)** أو تسمى **(زكاة النفس)** يعطي الإنسان عن كل نفس ممن يعيلهم, عن كل أحد زكاة معروفة بالمقادير المعروفة وهي موجودة في الكتب الفقهية وعليه أن يعطي زكاة الفطرة باستثناء الفقراء والمعوزين, الله تبارك و تعالى رفع التكليف عنهم. لمن يعطيها؟ يعطيها إلى مستحقيها، وهكذا كان العيد عطاءً يتدفق إلى الناس الفقراء، ويشد الإنسان إلى إخوانه وأهله بالمظاهر العامة لذلك عندما يمارس الإنسان العيد يجب أن يتفحص المجتمع من كل جوانبه ويفكر ماذا عليه أن يعطي لهذا المجتمع؟

الانطلاقة الاجتماعية التي تجعل الإنسان في حالة أنه مثلما يفكر بأولاده يفكر بأولاد الناس، ومثلما يفكر بأن يظهر بمظهر جميل وجيد ومظهر الزينة التي أحلها الله (تبارك وتعالى) عليه أن يفكر أنه يوجد مجتمع إلى جانبه يجب أن يُسعده ويتعاطى معه بنفس الشيء، يجب أن يكون مجتمعنا مجتمعاً معيِّداً ليس فقط فرد معيد أو عائلة معيّدة لا قيمة للعيد؛ لأنك تلبس في مجتمع عريان، وتشبع في مجتمع جائع، وتفرح في مجتمع حزين.

يجب أن تعمل كيف تضفي حالة الغنى وحالة السرور والسعادة على كل من حولك، ولذلك يكون الإنسان في حالة حركة دائبة، وهو من صميم الفطرة أن يحب الإنسان للناس ما يحب لنفسه.

إذن شـهر رمـضان المبـارك أوشـك علـى الانتهـاء؛ وحتـى يتحـول شـهر رمـضان، وتتحـول فريـضة الـصوم مـن الأداء إلـى الإقامـة، علينـا أن نقيّم شـهر رمـضان فـي حياتنا من جهة ما بُذِرَ فيه، والذي يُفترَض أن يؤتي أكله في الأشهر اللاحقة.

أخلاقيـة الـصائم تبدأ فـي مرحلـة التطبيـق من الآن فصاعداً مـن يـوم العيد لـيس معنى ذلك أننا ودعنا شـهر رمـضان فودّعنـا العبـادة, شـهر رمـضان علمنـي ومنحنـي ملكة الالتزام لكنّ الالتزام مطلوب في كل أشهر السنة وفـي كل أيـام السنة وفـي كل الأوقـات بـلا استثنـاء.. نعـم.. لا توجـد هنـاك فريـضة صـوم واجبـة علـيَّ بعـد شـهر رمضان لكنّ صوم الجوارح والسيطرة علـى الشخصية والسيطرة علـى كـل جوانـب شخصيتي هو ما منحني شهر رمضان المبارك فبدأ من أول يوم في العيد، بـدأت فـي فجر يوم العيد من أول يوم العيد يقطف الثمـار الحقيقيـة لمـا زُرِع فـي شـهر رمـضان المبارك؛ لذلك من مصاديق العلاقة بالله (تبارك وتعـالى), هو قراءة القران الكريم, والنظر للناس نظرة اجتماعية تسعى لتحقيق السعادة وتوزيعها علـى كل احد من دون استـثـناء حتى الذين لا يدينون بديننا.

المجتمع الصالح هو المجتمع الذي يتدفق عطاء، ويعطي حبـاً، ويعطـي رحمـة، و يعطي أمناً لكل الذين من حولنا, هذا هو المجتمع لذلك من أشدّ المنكرات انك تجد في مثل هذه الأجواء مجتمعاً يتهدد بالقتل، ويتهدد بـالتفجير، ويتهدد بزهـق النفس، وإيجاد حالة من الرعب للناس الذين يريدون أن يعيشوا أمناً وأماناً بينما هذه لـم تكـن أصلاً قد درجت وعُرفت في تاريخنا الإسلامي أبداً بالعكس الإسـلام كـان يـؤمّن لكـل أبنـاء الـديانات وكـل أبنـاء البـشر بغـضّ النظـر عـن خلفيـاتهم يـؤمّن لهـم حقـوقهم وحريـاتهم مـن أجـل أن يكونـوا سـعداء نحـن أولـى مـن كـل أحـد بـأن نـُرسي دعـائم السعادة والمحبة في هذا العيد المبارك، وليكن هذا العيد إن شاء الله إرادة انتـصار، ونأمل أن يكون العراق في الأعياد المقبلـة قد تقدم أكثر فـأكثر ودرجـة علـى مـدارج الكمال الأمني والكمال الاقتصادي والكمال السياسي أكثر فأكثر، وبذلك يسجل شـعبنا انتصاراً إضافة إلى انتصاراته السابقة... والسلام عليكم جميعاً ورحمة الله و بركاته.